اللسانيات التداولية

السنة الأولى ماستر **الأستاذ لخضر روبحي**

التداوليات اللسانية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدّت انتباه الباحثين لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة. مما يستدعي الوقوف على نشأتها وعلاقتها بالعلوم والمعارف الأخرى.

تعريف التداولية:

1-لغة: أصل الكلمة مشتق من المادة اللغوية "داول"، قال الزمخشري:"دول-دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا. وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم عليه. وعن الحجاج: إنّ الأرض ستدال منا كما أدنا منها. وفي مثل (يدال من البقاع كما يدال من الرجال) وأديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأديل المشركون على المسلمين يوم أحد. واستدلت من فلان لأدال منه.. والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم"[1].

وبناء على ما على ما تقدم فالتداولية تحمل معاني التنقل من حال إلى حال والتبدل والتغير... " وتلك حال اللغة متحولة من حال لدى المتكلم إلى حال أخري لدى السامع، ومتنقلة بين الناس، يتداولونها بينهم، ولذلك لها مصطلح (تداولية) أكثر ثبوتا بهذه الدلالة من المصطلحات الأخرى: الذرائعية، النفعية، السياقية" [2] وهذا المصطلح هو المتداول في البحث اللساني، وعنه قال طه عبد الرحمان: "وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح التداوليات، مقابلا للمصطلح براغماتيقا، لأنّه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالته على معنيين الاستعمال و التفاعل معا"[3].

2-اصطلاحا: يقول دالاش (Dalash):" إنه تخصص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"[4].

كما نجد أيضا التداولية هي:"دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية، في نفس الوقت"[5].

وفي الدراسات اللسانية تعني التداولية ذلك الاهتمام المنصب على مستوى لساني خاص يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق المرجعي لعملية التخاطب"[6].

النشأة والتطور:

اللسانيات التداولية اتجاه ينظر إلى اللغة باعتبارها نشاطا وليست مجرد بنى، نشأت في ظل مكاسب معرفية و لسانية وفلسفية وبلاغية، مما جعلها تعرف بالتنوع و الثراء. تطوّرت في فترة السبعينات من القرن العشرين، بعد أعمال أوستين وسيرل وقرايس وغيرهم. ويمكن القول أنّ الفيلسوف الأمريكي شارل موريس charles moris هو أوّل من استعمل المصطلح سنة 1938 عندما ميّز بين علم التركيب و علم الدلالة و التداولية، الذي أعطى للتداولية تعريفا في سياق تحديده للإطار العام لعلم العلامات Semiologie، وهي في نظره: "تعالج العلاقة بين العلوم و مستعمليها". أمّا ميلاد التداولية فكانت سنة 1995 عندما ألقى جون أوستين John Austin محاضراته بجامعة هارفاد، وعنوانها willian james lectures. أمّا بداية البرنامج المعرفي للتداولية فكان مع عدد من الباحثين، نذكر منهم ميلر Miller، ونيوال Niwell وسيمون Simon...

وبذلك يكون البحث بلسان قد انتقل من الدراسة التي تخلص من النظام اللساني langue من دي سوسير إلى تشومسكي إلى دراسة لسانية تركز على التوجه الاتصالي والوظيفي بالبحث في الكلام parole والاستعمال اللغوي.

موضوعها: تهتم التداولية بدراسة اللغة أثناء الاستعمال في المقامات المختلفة، وبحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين، فاهتماماتها في مجموع تعريف هذا الحقل ينصب على دراسة العلاقة بين المتكلم و المستمع بكل ما يعتري هذه العلاقة من ملابسات وشروط مختلفة. حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللغوية وعمليات الاتصال والتفاعل. فهي بذلك تهتم بالمتكلم ومقاصده، على أساس أنّه محرك لعملية التواصل، وتراعي حال السامع أثناء الخطاب، كما تهتم بالظروف والأحوال الخارجية المحيطة بالعملية التواصلية، ضمانا لتحقيق التواصل من جهة، ولتستغلها في الوصول إلى غرض المتكلم وقصده من كلامه من جهة أخرى. ومن ثم فاللسانيات التداولية تعني في سبيل دراستها للغة بأقطاب العملية التواصلية.

فتبدو قيمة البحث التداولي في سعيه نحو الإجابة عن بعض الإشكالات:

-من يتكلّم؟

-من هو المرسل إليه؟

-ما قصدنا أثناء الكلام؟

-كيف نتكلم بشيء، ونسعى لقول شيء آخر؟

-ماذا علينا أن نفعل حتى نتجنب الإبهام والغموض في عملية التواصل؟

علاقة التداولية بالنحو الوظيفي: يعدّ النحو الوظيفي أهم رافد للدرس التداولي، بل هناك من الباحثين من جعل التداولية امتدادا للوظيفة[7]، من منطلق أنّ خصائص البنيات اللغوية تتحدد انطلاقا من ظروف استعمالها. وهذا ما ذهب إليه الباحث الهولندي "سيمون ديك" من خلال كتابه (النحو الوظيفي fonctional gramma).

ومن الدارسين العرب الذين عرفوا بأبحاثهم في النحو الوظيفي ضمن مجال التداولية " أحمد المتوكل " فيما جمعه من مقولات نحوية وما عرضه في نظرية أفعال الكلام، ولذلك يمكننا القول أنّ النحو الوظيفي بمثابة نظرية موسعة تكامل فيها النحو واللسانيات التداوية.

علاقة التداولية باللسانيات: من المعلوم أنّ دو "سوسير" قسّم الظاهرة اللغوية إلى (لسان، لغة، كلام)، وحصر موضوع الدراسة في الغلة دون الكلام، وقد ذهب جل الدارسين عند حديثهم عن العلاقة بين التداولية واللسانيات البنيوية إلى أن الأولى مكملة للثانية، لأنها تهتم بالكلام الذي هو غير اللسان المبعد من مجال دراسة علم اللسان في نظر دو سوسير " اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيئ يمكن دراسته بصورة مستقلة "[8]. ومن هذا الباب عدّت التداولية لسانيات الكلام في مقابل لسانيات اللغة التي أرسى دعائمها دو سوسير، وتصير التداولية من ثم جديرة بأن تسمى (علم الاستعمال اللغوي).

علاقة التداولية بعلم الدلالة: علم الدلالة –كما هو معلوم هو علم دراسة المعنى، أو هو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يدرس علاقة بين الرمز اللغوي ومعناه.[9] والتداولية هي"دراسة كيف يكون للمقولات معان في المقامات التخاطبية "[10]. والفرق بينهما من خلال فكرة (الكفاءة) و (الأداء)، حيث يصنف علماء اللغة علم الدلالة ضمن القدرة أو الكفاءة، بدراسة المعنى، أما التداولية فتصنف ضمن الأداء أي استخدام المعنى في الجملة. وبصورة أدق الدلالة تبحث في المعنى بعيدا نوعا ما عن السياق الحقيقي، لتربط التداولية دراسة المعنى بالسياق الذي يرد فيه.

علاقة التداولية باللسانيات النفسية والاجتماعية: تعتمد التداولية في درسها على اللسانيات النفسية، ولا دليل على ذلك خير من نظرية الملاءمة. أمّا عن علاقتها باللسانيات الاجتماعية فهي متأثرة بنزعة "دوركايم" الاجتماعية للغة.

التداولية والسياق: ترتكز التداولية في تحليل الإنتاج اللغوي على السياق Contexte ، وهو " مجمل الظروف الاجتماعية التي تأخذ بعين الاعتبار لدراسات العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والاستعمال اللساني...وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعارف الشائعة بينهما على حد سواء ". [11] مع العلم أن معظم النظريات التي انبثقت عن التداولية تركّز على السياق، حيث " أضحى هذا التصور الخطوة الأولى في تنظيم وهيكلة النظريات التداولية " [12].

وأبرز المفاهيم المعتمدة مفهوم (الفعل الكلامي) الذي يتجلى من خلال توظيف مبدأين في دراسة اللغة:

1-القصدية: ربط اللغة كمنظومة من القواعد المجردة بالمقاصد في إطار التواصل اللغوي.

2-المعطيات السياقية: استحضار متغيرات العالم الخارجي والمعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب وغيرها.